# دمشق

## في ماضيها القريب !

### « الكتاتيب ... الحكواتي ... الكركوزاتي ... الروايات ... الشاعر ... »

أولعت بالرجوع الى الماضي ، وبالمقابلة بينه وبين الحاضر ، وما أولعت هذا الولع إلا لتتبّع آثار الحياة والنظر في انتقالها من طور الى طور . لقد نعمت هذه الأيّام بقراءة « قاموس الصناعات الشامية » الذي تضافر على وضعه محمد سعيد القاسمي وابنه جمال الدين وصهره خليل العظم ؛ ووصفت الأثر البليغ الذي بقي في نفسي من قراءة هذا الكتاب الفريد في بابه ، ونشرت هذا الوصف في جريدة « الأيّام » . إني أعود الآن الى وصف أثر آخر ، فان في كل مادّة من موادّ هذا « القاموس » إشارةً الى عالم منفرد ، إلاّ أني لا أقف إلاّ على الموادّ الآتيـة : « مؤدّب أطفال ... الحكواتي ...



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكركوزاتي ... ممثل الروايات ... الشاعر ...» . فقد أحيت هذه المواد في ذهني صورة من صور الثقافة في دمشق في ماضيها .

كانت مراكز الثقافة في السنين الماضية الكتاتيب ، ثم كانت عامة الشعب تستمع إلى ما كانوا يسمونه يومئذ : «الحكواتي» و «الكركوزاتي» وممثل الروايات . وكان الشاعر في تلك السنين له غاية خاصة في شعره ، هذه المواد التي مررت عليها في «قاموس الصناعات الشامية» صوّرت لذهني عالماً خاصاً وهو عالم الثقافة في دمشق في ماضٍ غير بعيد ، فإذا استطعت أن أعرب عن هذا العالم في مقالي أدركنا الفرق بين أساليب ثقافتنا في الماضي وثقافتنا في الحاضر ، وتبيّن لنا بعد هذا الإدراك أثر التطوّر وقوة هذا التطوّر .

كانت الكتاتيب في حارات دمشق أبرز مجتمع من مجتمعات التعليم ، والقائم على الكتّاب يقال له شيخ الكتّاب ، وقد جاء في «قاموس الصناعات الشامية» تعريف لشيخ الكتّاب : فهو يلقّن الأطفال حروف الهجاء ، مفردها ومركبها وشكلها ، ثم يعلمهم قراءة القرآن والكتابة وطرفاً من الحساب» . وأفاض صاحب «القاموس» بعد ذلك في الكلام على الأجور في الكتاتيب ، وكان اسم هذه الأجور الخميسية لأن أهل الأولاد يدفعونها يوم الخميس .

إني أذكر من تلك الكتاتيب صوراً شتّى ، أما التعليم فلم يبق في البال أثر منه ، كانوا يعلّمون القرآن الكريم وحسن الخط وقليلاً من الحساب ، واسم الحساب في تلك الأيام : الهندي .

ولكن كيف كانت الكتاتيب وكيف كان التعليم وكيف كان شيخ الكتّاب ؟

أكثر الكتاتيب كانت في المساجد ، كان الكتّاب في غرفة مظلمة لا يدخلها نور ولا هواء فكان الأولاد محشوكين فيها حشكاً ، الهواء فاسد ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلا رياضة ولا فتح شبابيك ، كان الشيخ في بعض الكتاتيب يجلس على « طراحة » في الأرض وأمامه منصّة صغيرة ، يصوّب نظره في الأولاد ويصعّده ، وفي يده عصا طويلة اسمها في العامية « مسطيجة » وهي من القصب ، فاذا تحرّك ولد في آخر الكتّاب أو ضحك أو كلّم رفيقه كان الشيخ يهزّه بهذه « المسطيجة » من محله دون أن يتلحلح ، فمرّة تقع العصا على طربوشه ، ومرّة على « طاقيته » وحيناً على كتفه وحيناً على صدره ، فيقلع الولد عن الحركة اذا كان يتحرك ، أو عن الضحك إذا كان يضحك ، أو عن الكلام إذا كان يتكلم ، وطريقة التدريس كانت قائمة على أن يضع كل ولدٍ قرآناً على ركبتيه ، فيتربع على الحصير ، فيقرأ القرآن وهو يهتز ، مرّة يميل ذات اليمين ومرّة ذات الشمال ، وحيناً يهبط برأسه وحيناً يرفع الرأس ، وكثيراً ما كان الأولاد يقرؤون ما يقرؤون والشيخ لاهٍ بأكل « الفسقية » في الصباح ، ينتظر الخميس لأخذ الخميسية ، وأكثر ما يصل اليه الولد في قراءة القرآن الكريم سورة ياسين ، فاذا وصل الى هذه السورة الشريفة ظهرت دلائل النجابة عليه !

إني لا أنسى انصراف الأولاد من الكتاتيب في العصر وكل واحدٍ منهم قرآنه في كيس من الكتّان معلّق على كتفه .

أذكر من كتاتيب تلك السنين كتّاب الشيخ محمد علي الحكيم في سوق مدحة باشا [1] ، والشيخ كان مشهوراً بحسن الخط ، فهو عصبي المزاج ، قصير القامة ، سريع الخطو ، وكتّاب الشيخ حسين البفجاتي في مدرسة نور الدين الشهيد [2] ، وكتّاب الشيخ سليم النحلاوي في زاوية السعدي في أول حارة النصارى . أمّا الكتّاب المشهور فهو كتّاب الشيخ عبد السفرجلاني ،

---

(١) مقابل خان جقمق .
(٢) وأقام الشيخ أيضاً في كتّاب مقابل خان الزيت في سوق مدحة باشا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأولاد فيه من أهل البيوتات في دمشق ، ومن أبناء التجّار وذي الحالة الحسنة . ومن الشيوخ الذين درّسوا فيه الشيخ كامل الكوّيم وكان مشهوراً في حينه ، وقد اتهم بأنه وهابي ؛ كان هذا اللقب في دمشق في تلك السنين يدلّ على شيء من الانحراف في نظر الجامدين من المشايخ .

هكذا كانت مراكز الثقافة في دمشق لمّا فتحت عيني على الدنيا .

وعلى ذكر الكتاتيب لا ينبغي لي أن أهمل ذكر « الخجا » ؛ والمراد بهذه المادّة المعلمة التي كانت تعلّم البنات في الكتّاب ، فكان للبنات كتاتيب يقصدها الأولاد الصغار فيجتمع الأولاد والبنات معاً ، وقد بقيت في ذهني أسماء « الخجا » عيّوش « والخجا » خدّوج . أذكر أن كتاتيب البنات كانت في البيوت ، ومن آثار تلك الكتاتيب في خاطري كتّاب في محلتنا القديمة في الشاغور ، على مقربة من حمّام الركابي . واذا كان لا بأس بتدوين ذكرى من ذكر تلك السنين فاني أذكر انه بينما كان الأولاد والبنات جالسين في ذلك الكتّاب في « الليوان » صرخت « الخجا » وقالت : يا أولاد ! غمضوا عيونكم ، فغمضنا ، ثم صرخت : يا أولاد ! فتحوا ، ففتحنا . ماذا جرى في خلال هذا التغميض والتفتيح ؟ إن « الخجا » قد غطست في البحرة ، ثم نشفت ماء بدنها !

وكأنّ العصر الذي عشت فيه في صغري كان صورة العصر الذي وصفه صاحب كتاب الأغاني ، فاذا رجعنا الى الأغاني وجدنا وصف الكتاتيب : أين تعلم الناس وكيف كان المعلمون يعاملون الأولاد ويكافئون النابغين منهم وكيف كانت حياة الأولاد في الكتاتيب ، فمن طرائف الأمور أن نعرف أن ابراهيم الموصلي كان في الكتّاب في صغره فكان لا يتعلّم شيئاً ولا يزال يُضرب ويُحبس ولا ينجح ذلك فيه حتى هرب الى الموصل وهناك تعلّم الغناء ، كما أنه من طرائف الأخبار أن نعرف أن الجواري كنّ يختلفن الى الكتّاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كانوا يسمون المدرسة مرّة كتّاباً ومرّة مكتباً والاسمان استعملا في عصرنا هذا .

هكذا كانت الكتاتيب لمّا فتحت عيني على الدنيا في دمشق ، أمّا عامّة الشعب فكانوا يسرعون في المساء الى ما كانوا يسمّونه « الحكواتي » . وقد جاء في تعريف هذه المادّة في « قاموس الصناعات الشامية » أنه اسم لمن يحفظ الحكايات ويلقيها عن ظهر قلبه أو من الكتاب ، وأكثر « الحكواتيـة » كانوا يحفظون قصص عنترة والملك الظاهر والملك سيف أو حكايات من نمط آخر مضحك ، لقد فصّل صاحب « القاموس » الكلام على محل « الحكواتي » وعلى وقت الحكاية وأغلبه بعد المغرب وبعد العشاء .

لقد سمعت بعض « الحكوانية » في صغري فقد كانوا يمثلون تمثيلاً في خلال قراءة الحكاية . كان الواحد منهم يمسك الكتاب بيده ويجول في « القهوة » من أولها الى آخرها والجمهور على يمينه وعلى شماله وهو في وسطهم يجيء ويذهب . وكان صوته يختلف على اختلاف معاني الكلام ، فاذا احتاج الكلام الى الشدة كان « الحكواتي » شديداً في صوته ، واذا احتاج الى الرقة كان رقيقاً ، واذا وصل الى موطن من مواطن البطش كان جبّاراً . وهكذا كان يؤثر في جمهور الناس بنبرات صوته وباختلاف هذه النبرات يحكي « الحكواتي » والمستمعون من الناس لاهون بأراكيلهم ، يملؤون خواطرهم من صور حكاياته ، لا صلة لهم بالدنيا ومشكلاتها ، همّهم في تلك الساعة أن يعرفوا ما جرى لعنترة أو للملك الظاهر أو للملك سيف ، فالدنيا كلها كانت في نظرهم أخبار عنترة والملك الظاهر وغيره من الملوك ، حياة وادعة ، هادئة ، بسيطة ، تبدأ في التبكير الى حرفهم التي ذكرها صاحب « القاموس » وتصفّى مشكلاتها في المساء بالإصغاء الى « الحكواتي » وبما يشحن به أذهانهم من صور البطولة والشجاعة والحب وما شابه ذلك .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأغلب «الحكواتية» كانوا في آخر الوقت يقفون عند مقطع من مقاطع الحكاية حيث يحب المستمع أن يعرف ما جرى لعنترة أو لغيره من أبطال الحكايات ، فكان «الحكواتي» في وقفته هذه يربط المستمع ويقيده حتى يبكر في الليلة الآتية الى «القهوة» وفي «قاموس الصناعات الشامية» قصة طريفة من هذا القبيل لرجل من أهل حمص .

وإذا رجعنا الى تاريخنا البعيد وجدنا أن القصص كان مستفيضاً في تلك الأحقاب ، فكان الناس يقبلون على القاص ويدفعون اليه شيئاً من المال كما يقبل الناس في أيامنا على المسارح .

وكما كانت العامة في دمشق تذهب الى «الحكواتية» في المساء فتبقى حكاياتهم في أذهانهم صوراً وآثاراً شتى كذلك كانوا يقبلون على «الكركوزاتي» لقد وصف صاحب «القاموس» «الكركوزاتي» فعرّفه وذكر محل شغله وأدوات عمله وتكلم على اختلاف لهجاته ، كل لهجة تناسب الصورة التي يعرضها ، فلهجة «مدلل» تختلف مثلاً عن لهجة «عيواظ» . وأكثر الحارات القديمة في دمشق كان فيها «كركوزاتي» . والإقبال عليه كان يشتد في رمضان . وكما كان يذهب الأولاد الصغار الى «الكركوزاتي» كذلك كان يذهب اليه الشباب والشيوخ من أهل الحارة . وقد كان في بعض الأحيان حسن الصوت فيقرن حسن تمثيله بحسن صوته . وآخر من شهدته في دمشق من «الكركوزاتية» خالد الكركوزاتي المشهور ، وقد عجز في آخر عمره عن العمل وذلك من أربعين سنة فكان يطوف على بعض المقاهي فيتصدّق عليه من يعرفه من الناس . وقد كانت مقاطيع وجهه تدل على شيء من النبوغ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تقتصر مهمة « الكركوزاتي » على تسلية الناس فقد كان ناقداً في أمور الاجتماع والأخلاق والسياسة . كان « الكركوزاتي » ناقداً من نقّاد الحياة العامّة ، كان في أكثر الأحيان يلجأ الى حادث حدث في الحارة أو في المدينة أو في الحكومة فيستخرج من هذا الحادث موضوعاً ويهيئ شبه رواية يركّز أبطالها ويجعل لكل بطل منها دوراً ويُنطقه باللسان المناسب لهذا الدور ، فالرواية لم تكن مجرّد عرض صور أو حسن غناء ، وإنما كانت نقداً اجتماعياً ، فهي شكل من أشكال ثقافة العامّة .

أذكر أني كنت في « لندن » سنة ١٩٣٤ وقد حضرت في ملهى من ملاهيها المشهورة تمثيل صور مختلفة يغلب عليها الهزل ، من جملة الصور خيمة « الكركوزاتي » لكنها تنار بالكهرباء بدلاً من السراج والفتيلة فكانت الخيالات تعرض كما تعرض في بلادنا خيالات « مدلّل » و « عيواظ » وغيرهما ، وهذا ما يدلّ على أن هذا الطراز من النقد الاجتماعي له أبلغ الآثار في العامّة والخاصّة ، وربما عمل فيهم ما لا يعمله غيره .

وآخر شكل من أشكال الثقافة العامّة في دمشق في ماضيها إنما هو التمثيل ، إلاّ أن ممثل الروايات أرفع درجة من « الحكواتي » و « الكركوزاتي » .

تكلم على ممثل الروايات صاحب « قاموس الصناعات الشامية » ، وكان الاسم الغالب على المسارح في تلك الايّام : « التياترو » و « القوميديا » . لقد وصف هذه الحرفة وذكر لوازمها ولوازم المسرح وذكر أنها من خمس وثمانين سنة راجت في دمشق مدة ست سنين رواجاً عجيباً ، واهتمّ بها أصحابها ، وغصّت المسارح بالمتفرجين ، ثم صدرت الأوامر بتعطيلها لأنّ من الصنّاع والعمّال من كان

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يترك أهله بلا أكل ويصرف ما يكسبه من المال على الفرجة ، وهذا دليل على منزلة التمثيل في العامّة فضلاً عن الخاصّة ، ثم سُمح بالتمثيل فكان يفد على دمشق ممثلون من مصر يمثلون روايات عربية .

لقد كثر التمثيل في دمشق بعد انسحاب الترك من هذه البلاد من ثلاث وأربعين سنة ، أذكر أنه مثلت على مسرح الزهرة في دمشق رواية جمال باشا . وقام بدور جمال باشا المرحوم عبد الوهاب أبو السعود فما كانت هيأته تختلف عن هيأة جمال باشا في شيء لا من حيث القامة ولا من حيث اللحية والوجه . ثم جاءت فرقة « كشكش بك » ومثّلت على مسرح الزهرة وحضر الرواية الأمير فيصل وجماعته وفي جملتهم الخوري حبيب اسطفان ، وكان خطيباً اشتهر بتشجيع العامّة في خطبه .

هذه أربعة مظاهر من مظاهر الثقافة في ماضي دمشق القريب ، وليس معنى هذا أن الثقافة الرفيعة لم يكن لها أثر فقد اشتهر شيوخ في علوم الدين واللغة ، بعضهم كان يدرّس في المساجد في أوقات معروفة وبعضهم في البيوت . وكان لهم تلاميذ لا ينقطعون عن سماع تدريسهم ، وكنت في بعض الأحيان أحضر درس الشيخ بدر الدين الحسني في مسجد بني أميّة . وأذكر أن أحد تلاميذه في الحلقة كان يقرأ حديثاً من الأحاديث فاذا فرغ من القراءة انبرى الشيخ للشرح والتفسير بلهجته المغربية . وقد حضرت مرّة في مسجد بني أمية شيخاً من الجزائر لا يحضرني اسمه ولم تطل إقامته بدمشق فكان يخوض في أمور مختلفة ، حتى في الطب ، وقد بقي في ذهني من تدريسه من خمسين سنة أو أكثر هذا الكلام : خذ من الحمّام العرق ومن النحل الورق ومن اللحم المرق .

أمّا الشاعر فلست أعرف تعريفاً به أغرب مما جاء في « القاموس » :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

« إذ الشاعر هو من يحترف بواسطة أدبه وشعره فينظم شعراً يمدح به الأمراء والأغنياء فينعمون عليه بما تسمح به أنفسهم » .

هكذا كان الشعراء المساكين في دمشق من خمسين أو ستين سنة ، مهمتهم المدح لينعم المنعمون عليهم . وقد يقول قائل : وماذا كانت مهمة الشاعر في القديم ، أفما كان يمدح الأمراء والملوك والخلفاء ليعيش بعطاياهم ؟ هذا صحيح ، ولكن بعض الشعراء كانت أماديحهم في تلك السنين درساً في البطولة ، فكانت قصائدهم تشتمل على روح البطولة فضلاً عن اشتمالها في بعض الأحيان على صور رائعة من الفن مثل وصف إيوان كسرى في شعر البحتري ، أو وصف الأسد في شعر المتنبي ، أو شيء آخر من هذا النوع .

أدركت وأنا صغير شاعرين من شعراء دمشق وهما : عبد الرحمن القصّار وأبو السعود مراد ، وأذكر أني لما كبرت ضمّني في الجرجانية أنا و « أبو السعود مراد » مجلس فقال لي : ما رأيك في شعر هذا العصر ، ولم أعرف الغاية من سؤاله ، ثم قال لي : إن شعر هذا العصر خالٍ من الكناية والتورية والاستعارة وما شابه ذلك فكان الذوق في تلك الأيّام متعلقاً بهذا الشكل من الشعر .

هذه صورة من صور الثقافة في دمشق قبل خمسين أو ستين أو سبعين سنة ، لا أقول انها كاملة ولكني أرى فيها بعض الصحّة . وإذا قابلنا بينها وبين الثقافة في يومنا هذا اهتدينا الى أثر تعاقب السنين والى تنقل الثقافة في هذه السنين من طور الى طور : فالكتاتيب ذهب رسمها ولم يبق لها أثر وقامت مقامها مدارس الحكومة على اختلاف درجاتها ؛ و « الحكواتية » في دمشق لا يرتفع لهم صوت فقد حلّت القصص الفنية محلّ تلك الحكايات العامية وأخذ أصحابها يعالجون في قصصهم مشكلات الحياة على تباين ألوانها ؛ و « الكركوزاتية »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بطلت حرفتهم بالمرة ، ومن النشء من لا يعرف معنى هذا الاسم ، فالنقد الفني حلّ محل النقد العامي ، وصور السينما حلّت محل صور « كركوز » ؛ وأمّا التمثيل فان الهمم منصرفة اليه ، ولعلّ أهمّ ما يحتاج اليه هذا الفنّ إنما هو المكان قبل كل شيء .

والشاعر في عصرنا إذا هبط بشعره الى المدح ليعيش هبط هو وشعره معاً .

إن للشعراء في دهرنا هذا مهمة غير مهمة المدح ، فهم الذين يغنّون ببطولة الرجال والأمم ، ويعطفون في شعرهم على آلام البشرية ، ويحلمون بالحب والشباب ، ويغنّون بحنو الأسرة وبقوة عاطفة العمل الاجتماعي وقوة الأمل .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net